

الدَّورُ الْإِيرَانِي فِي الْعَصْرِ الْأَمَوِي

د. عبد الحميد الرفاعي

إيران :

استعمل المسلمون - قديما وحديثا - ثلاثة أسماء للدلالة على مسمى واحد وهي : إيران وفارس وخراسان ، وإن كانت « إيران » أقلها استعمالا عند مؤرخيهم ، إلا أنها أقدم هذه الأسماء ظهورا ، وأكثرها شمولاً ، وهي - علاوة على ذلك - الاسم الذي ارتضاه الإيرانيون حديثاً .

وهذه التسمية القديمة إيران ، أو إيرانشهر ، كانت تطلق - كما ذكر ياقوت - على المنطقة التي تشمل العراق وفارس والجبال وخراسان ، ولكننا قبل أن نشرع في الحديث عنها يجب أن نعتبر العراق منطقة بذاتها ، لاختلافها عن سائر المناطق المذكورة جغرافياً ، وبشرى ، وسياسياً ، وزاد هذا الاختلاف بمرور العهود الإسلامية .

وكانت إيران منذ القدم موطن العناصر الآرية التي تضم البارثيين ، والبكتريين والميديين ، وقد اندمجت هذه العناصر

فى عنصر واحد ، وتكلمت بلغة واحدة ، هى اللغة الفارسية التى كانت لغة اقليم « بارسا » الواقع شمال شرقى الخليج العربى

وايران القديمة أوسع من ايران الحالية ، فقد كانت تشمل أيضا جزءا كبيرا من أفغانستان وبلاد التركمان الروسية ، ويرى بعض المؤرخين أن اقليم ما وراء النهر جزء من ايران ، ويرجع ذلك ان أن منطقة ما وراء نهر جيحون كانت ملتقى الحضارتين الايرانية والطورانية ، والتقى فيها العنصران الفارسى والتركى الا أننا نميل الى اعتبارها جزءا من تركستان لانفصالها عن خراسان بنهر جيحون ، وغلبة العنصر التركى عليها وبخاصة بعد سقوط الدولة السامانية على أيدي القراخانيين سنة 389 هـ ، ويعضد هذا الرأى قول ياقوت : « فأما ما وراء النهر فهى بلاد الهياطلة ، ولاية برأسها » .

وقلب ايران هضبة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف قدم وتحيط بها من جميع جهاتها — عدا جهتها الشرقية — حوائط جبلية معقدة ، أما من ناحية الشرق فانها تتداخل مع هضبة أخرى هى هضبة أفغانستان . والمناطق السهلية فيها ضيقة جدا فى الساحل الجنوبى ، وأخصب المناطق تقع فى السهول الشمالية على سواحل بحر قزوين حيث تتوفر الامطار .

وتعد خراسان أكبر الاقاليم الايرانية ، وهى كلمة فارسية معناها : الشمس المشرقة ، والى الجنوب الشرقى يوجد اقليم « سجستان » وتسمى أيضا « نيمروز » ومعناها « نصف يوم » لانه قيل انها تساوى نصف ما تطلع عليه الشمس ، لخيرها وثرائها وفى الجنوب على الشاطئ الشمالى للخليج العربى يوجد اقليم فارس ، والى الشرق منه يوجد اقليما كرمان ومكران . وفى الشمال على سواحل بحر قزوين توجد بلاد الديلم التى تشمل

جرجان وطبرستان والديلمان والخرز وقومس ، وآخر الاقاليم الايرانية هو « خوزستان » الذى يقع بين فارس والبصرة على الطرف الشمالى الشرقى للخليج الفارسى .

وايران أمة عظيمة ذات تاريخ عريق وحضارة تليدة ، وبخاصة فى عهد الاسرة الساسانية التى حكمتها منذ سنة 369 م ، واعتبرها الفرس رمز مجدهم ووحدتهم ، وقد أحيا ملوكها الديانة الزرادشتية وعبادة النار ، وزعموا لانفسهم حقا الهيا مقدسا فى حكم شعبهم واتخذوا لقب شاهنشاه ومعناه ملك الملوك وكانت الطبقة فيها سائدة ، اذ يمثل الشعب الطبقة الدنيا ، ويحكمه طبقة الملاك (الدهاقين) والقادة العسكريين (المرازبة) ورجال الدين (الموابذة) . وقد أشرقت شمس الاسلام على المناطق الايرانية فى عهد الفتوحات الاسلامية الاولى فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واستمرت مقاومتهم العنيدة الى أن قتل ملكهم « يزدجرد » فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

القبائل العربية فى ايران :

ارتبطت ايران بمصرى العراق « الكوفة » و « البصرة » منذ الفتح الاسلامى ، وكانت الاحداث فى هذين المصرين تنعكس انعكاسا مباشرا على الاقاليم الايرانية ، كما كانت الاحداث الايرانية تحدث صدى كبيرا فيهما ، ولم تكن الهجرات العربية التى أعقبت الفتح الاسلامى تتم من جزيرة العرب الى ايران مباشرة ، بل كانت تتخذ من هذين المصرين محطة وسطى ، وجسرا تعبر عليه الى ايران ، ولذا كانت أوضاع هذه القبائل انعكاسا لما كانت عليه أحوالها فى الكوفة والبصرة ، وحملت معها ما كان بينها من منافسات وصراعات ، وكانت قبائل العرب الجنوبيين تغلب على الكوفة ، وسميت أرباع الكوفة لانها تضم أربعة قبائل

يمنية هي : الازد ومذحج وهمدان وكندة ، أما البصرة فغلبت عليها قبائل العرب الشمالية ، وسميت أرباع البصرة وهي : بكر وعبد القيس وتميم وأهل العالية (ويقصد بهم أهل المدينة وبخاصة قيس) ثم لحقت بالبصرة في وقت متأخر نسبيا جماعات من الازد .

وتشكل في البصرة كتلتان متصارعتان الاولى تضم قبائل مضر وتميم ، وكانت هي الاقوى والاكثر عددا ، والثانية تضم الازد وربيعة (ومنها بكر) واستمر هذا التكتل عندما هاجرت هذه القبائل الى ايران .

وأقبلت هذه القبائل على الهجرة الى المناطق الايرانية لتشارك في الفتوحات الاسلامية في مناطق الثغور ، وتنال مزيدا من الامتيازات ، ويصبح من حقها الاستيطان في المناطق الجديدة ، كما أنها رأت في مناطق الاطراف ما يسمح لها بحرية أكثر لانها لم تتعود الخضوع لسلطة مركزية ، وكانت الادارة الاموية تشجع هذا الاتجاه لتمتص الطاقة القتالية لهذه القبائل فيما هو أجدى من الصراع بينها ، والتمرد على سلطانها ، وكان الحجاج الوالى على المشرق يقول للعرب « انى لم أجد لكم دواء أدوى لدائكم من هذه المغازى والبعوث » .

وكانت الهجرات العربية تتم بأعداد كبيرة وتهدف الى التوطن والاستقرار ، اذ كان المقاتلون يصطحبون أسرهم ، وكان القادة يصطحبون قبائلهم معهم ، ومن أمثلة ذلك البعث الذى سيره زياد بن أبيه سنة احدى وخمسين من الهجرة الى خراسان بقيادة الربيع بن زياد الحارثي ، وكان يضم خمسين ألفا بعائلاتهم من أهل الكوفة والبصرة . وقد ذكرت المصادر احصائية لقوات القبائل الموجودة في خراسان سنة 96 هـ فكان مجموعها أربعة

وخمسين ألفا ، منها سبعة آلاف فقط من غير العرب . ولا شك أنه كانت هناك قوات أخرى تحارب في الثغور ، وفي مناطق تمرد الخوارج . وفي سنة 112 هـ وجه الخليفة هشام بن عبد الملك عشرة آلاف من أهل البصرة ومثلهم من أهل الكوفة لتدعيم قوات قائده الجنيد فيما وراء النهر .

وغلبت كل قبيلة على منطقة من المناطق الإيرانية ، ففي منطقة نيسابور وغربي إيران غلبت القيسية ، وفي شرقي إيران تداخلت مواطن بكر وتميم ، وكثر العداء بينهما ، وامتد إلى إقليم سجستان .

وكانت تميم أكثر القبائل العربية عددا وقوة ، وبالتالي أكثرها تأثيرا في الأحداث الإيرانية ، وكان زعيمها في الصدر الأول من العصر الأموي الاحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم ، وهو فاتح خراسان في عهد عمر ، وكان مسموع الكلمة في عهد معاوية ، وأحد مستشاريه فيما يتعلق بالولاية الإيرانية (خراسان) ، وعنف الوالي زياد بن أبيه لاقصائه إياه وهدده بالعزل ، وقال معاوية لاخته عندما سألته عن الاحنف : « هذا الذي إذا غضب غضب لغضبته مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب » ، وكان بنو تميم في عهده كتلة واحدة متماسكة ، وكان ينصحهم بقوله « يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدعوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » . واستقر من كان مع الاحنف في كور بلخ ، واتخذ هو من مرو الروذ قاعدة له .

لكن ترابط بني تميم ووحدتهم في إيران لم يستمر بنفس القدر ، وظهر التنافس بين جماعتين منهم هما « مقاعس » و « الابناء » وتعصب كل منهما لبعض القادة ولذا لم يتمكن

بنو تميم من تولى الزعامة السياسية فى ايران ، وظلوا دائما يحتلون المركز الثانى بعد القيسية ، وكان منهم نواب الـوالى وأصحاب الشرطة .

وكان القيسية أصحاب الامرة ومنهم الـولة وكبار العمال ، لانهم ينحدرون من نفس الـارومة التى ينتمى اليها خلفاء بنى أمية ، ولم ينافسهم فى مكانتهم سوى الـيمنية ، كالازد فى عهد المهلب وأبنائه وخالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد .

وبلغ الازد فى ايران أوج عزهم فى عهد زعيمهم المهلب ابن أبى صفره ، الذى أبلى أعظم البلاء فى حرب الخوارج وبخاصة فى اقليم فارس ، وبلغ من قوة زعيمهم هذا أنه تحدى قائده الحجاج عندما اتهمه بالتقاعس فى حرب الخوارج وهدده ، فقال له المهلب : « ان شرا من الازد لقبيلة تتنازعها ثلاث قبائل لم تستقر فى واحدة منهن » ، وتولى المهلب خراسان سنة 78 هـ ، ولكن الحجاج أوغر صدر الخليفة عبد الملك على المهالبة واتهمهم بأنهم زيرية ، وقد أدى اقصاؤهم الى ثورتهم القوية بقيادة يزيد بن المهلب ، مما دفع الدولة الاموية الى التنكيل بهم فتضاءل معهم شأن الازد ، ودفعهم هذا الى ثورة أخرى فى أواخر العهد الاموى سنة 126 هـ بقيادة زعيمهم الكرمانى .

وقد أدت الصراعات بين العناصر العربية فى ايران قيسية ويمنية الى ضعف القوة العربية ، وضياح ثمرة جهودهم فيما وراء النهر حيث غلبهم الترك على هذا الاقليم ، كما أفاد العباسيون من هذه الصراعات ونجح قائدهم فى خراسان أبو مسلم فى استثمارها لصالحه .

ونظرا لغلبة الطابع الحربى على الهجرات العربية الى ايران فقد اتخذ معظمهم معسكرات خاصة بهم ، ورابطوا فى القلاع

والحصون ، ولكن هذا لا يعنى أنهم كانوا بمعزل عن السكان الاصليين ، ولم تكن حياتهم العسكرية تحول دون الاختلاط بالسكان الاصليين ، فتزوج الكثير منهم من نساء فارسيات ، وظهرت أجيال جديدة مولدة امتزج فيها الدم العربى بالدم الفارسى ، وكانت للمقاتلين العرب فى القرى الفارسية أملاك وضياع ، كما كان لهم موال وأتباع من الفرس .

وبمرور الوقت ارتبط العرب بوطنهم الجديد ، وبدأوا يشعرون أنهم خراسانيون وكان يطلق عليهم « أهل خراسان » ، وتشبهوا الى حد كبير فى زيهم وحياتهم بالفرس ، فارتدوا السراويل الطويلة ، وشاركوا فى الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان ، كما أن الحياة العملية بما فيها من بيع وشراء وتعامل أدت الى معرفة الكثيرين منهم باللغة الفارسية ، وكانت هذه اللغة لغة تعامل حتى فى مناطق التجمع العربى كالكوفة والبصرة وظهر فى جيش أبى مسلم كثير من العرب يتكلمون الفارسية .

ولم يكن موقف الفرس معاديا لهذا الوجود العربى ، ولم يحدث أن تكتلوا ضد العرب ، أو وقفوا منهم موقف العداوة والنفور ، وبخاصة أن العرب أشركوهم معهم فى كثير من الامور كما سيرد فى حينه .

وكانت الخلافة الاموية وادارتها فى ايران تعملان على ايجاد التوازن بين هذه العصبية العربية ، وليس صحيحا أن الخلافة انجازت الى القيسية ضد اليمنية ، وتعصبت لها ، لان هذه الخلافة نفسها لم تجد غضائه فى الاعتماد بصورة كبيرة على اليمنية فى الشام ، وبخاصة قبيلة كلب اليمنية التى تزوج منها معاوية ابن أبى سفيان ، وأبلى مع مروان بن الحكم فى مرج راهط أعظم البلاء ، ولكن الوضع فى ايران كان يفرض نفسه ، لان

المضرية كانوا غالبية كبيرة وبخاصة تميم ، فكانت هذه الاغلبية عنصرا مؤثرا فى تقدم المضرية على منافسيهم ، ولكن الخلافة لم تصرف نظرها عن اليمينين ، وولت منهم المهالبة ، وخالد القسرى وأخاه أسدا ، ولكن المضرية كانوا كثرى الشغب على هؤلاء الولاة ورفضوا الخضوع لهم .

وترجع كثرة الاضطرابات العصبية فى ايران الى أن القبائل التى استقرت بها كانت من قبائل البدو الذين لم يعرفوا الاستقرار أو الخضوع لحكومة مركزية ، وهى القبائل التى تفشت فيها الردة بصورة واضحة ، أما قبائل الشام من كلب وقضاعة فقد بدأ استقرارها هناك قبل الاسلام ، وعرفت نوعا من النظم المتطورة فى ظل الفساسنة والارتباط بالدولة البيزنطية ، فكانت أكثر استعدادا للالتزام بالطاعة .

وكانت الادارة الاموية تستعين بجندها الشامى عند الحاجة لقمع الثورات ، أو تعزيز قواتها فى الثغور ، ولكنها تسحب هذا الجند ، ولا تسمح له بالبقاء فى ايران حتى لا يتأثر بما فيها من اضطرابات ، وبنى الحجاج مدينة واسط لتكون معسكرا لهذا الجند الشامى حتى لا يختلط بالجند العربى فى الكوفة أو خراسان وكان الحجاج يقول لهم : « يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب ، يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء » ، وكان يسميهم « أهل السمع والطاعة » وفى سنة ١١٦ هـ وجد الوالى عاصم بن عبد الله الخراسانيين ينضمون الى ثورة الحارث بن سريج التى سنشير اليها ، فقال : « انى لاحق بأرض قومى أبر شهر ، وكاتب منها الى أمير المؤمنين حتى يمدنى بعشرة آلاف من أهل الشام » .

وكان تقديم الشاميين يثير غيرهم من العرب فى خراسان ، حتى قال قتيبة بن مسلم لجنده ، عندما أعلن ثورته على الامويين « حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنييتكم » . وكانت أحد أسباب ثورة ابن اشعث ، فحاول الخليفة ترضية الجند المتمرد بأن عرض عليهم « أن يجرى عليهم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام » .

أحوال الايرانيين الاجتماعية والاقتصادية :

اعتبر العرب أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام موالى لهم ، وهذه التسمية لا تدل أبدا على تحقيرهم ، او انهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ولكنها تدل على الولاء والارتباط من الناحية اللغوية ، ومن ناحية الاستعمال ، فهى تفيد أن هؤلاء المسلمين الجدد التحقوا بالقبائل العربية ، وشاركوا العرب فى أنسابهم ، وهى من أسمى ما يعتز به العربى ، وأن العرب لم يقبلوا أن يسترقوهم أو يستعبدوهم برغم أن بلادهم فتحت عنوة ، وقد أكسبهم الالتحاق بالقبائل العربية ميزات كثيرة فى مجتمع يعلو فيه شأن الافراد بالانتساب الى القبائل ذات العدد والبأس ، وقد ذكر ابن عبد ربه فضل العرب على الموالى فقال انه العتاقة ، والاحسان اليهم واستنقاذهم من الكفر ، واخراجهم من دار الشرك الى دار الايمان والتعرض للمقتل فيهم ، أى مسئولية العرب عن حمايتهم والدفاع عنهم وقبول الموت من أجلهم .

واذا كان هناك فريق من العرب تعصبوا ضد الموالى ، فان فريقا من الموالى أيضا تعصبوا ضد العرب وهم الذين اطلق عليهم اسم « الشعوبيين » ولكن هذا لا يعنى أنه كان الوضع العام أو السائد ، ولكنه اتجاه أقلية من المسلمين ، وليس أدل على ذلك من أن ابن عبد ربه أفرد لهم بابا تحت عنوان « باب المتعصبين من العرب » .

ونعتقد أن هذا التعصب كان واضحا فى المناطق التى يغلب فيها العرب غلبة واضحة ، ويكاد يتلاشى فى المناطق التى يعد فيها الموالى أكثرية مثل المناطق الايرانية ، حيث تم الاختلاط والتمازج بين العنصرين ويتضح هذا فى موقف الاحنف ابن قيس سيد بنى تميم عندما فكر معاوية فى التخلص من بعض الموالى خوفا من وثبتهم على العرب ومنازعتهم فى سلطانهم اذ قال له : « أرى نفسى لا تطيب بقتل أخى لامى وخالى ومولائى ، وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب » .

وبلغ الموالى فى ايران مكانة الندية للعرب ، ولم يقبل حيان النبطى ، وهو من الديلم وسرد ذكره بشيء من التفصيل ، أن يسخر منه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وهو من أمراء البيت الاموى ، ورد عليه بعنف وقسوة ووصفه بالحمق ، واضطر الوالى مسلمة بن عبد الملك أن يسترضى هذا المولى ويقول له : « يا أبا سليمان لا يهولنك كلام العباس » .

وكان كثير من العرب يقبلون على الزواج من الموالى وتزويجهم وقد ذكرنا قول الاحنف ان منهم أخواله واخوانه لامه ، وذكر ابن عبد ربه أن رجلا من الموالى يسمى أحمد بن عبد العزيز نزل بدار رجل من عبد القيس فى البحرين ، فرغب العربى أن يزوجه مع علمه أنه مولى . وكانت زوجة والى خراسان نصر بن سيار تسمى « المرزبانة بنت قديد » ، مما يدل على أنها فارسية . وقد وصل الدم الفارسى الى عروق الخلفاء الامويين أنفسهم اذ كانت أم يزيد بن الوليد أم ولد فارسية تدعى شاه أفريد بنت فيروز ابن يزدجرد حفيد كسرى ، وكان الخليفة يفخر بذلك ويقول : أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى ، وجدى خاقان ويزعم البعض أن العرب كانوا يحقرون الموالى فلا يكونونهم بالكفى ، ولا يسمحون لهم بركوب الدواب فى الحرب ويجبرونهم

على القتال مترجلين ، وقد رأينا فى النص الذى ذكرناه آنفا أن مسلمة ابن عبد الملك كنى حيان النبطى بأبى سليمان ، أما انزال الموالى عن الدواب فقد فهموه من اعتراض بعض أشراف الكوفة على المختار الثقفى بقولهم : « لقد أدنى موالينا وحملهم على الدواب » ، وهذا التعبير يدخل فى باب الكناية ويفيد أنه استخدمهم فى جيشه ، ولا يعنى ذلك أنهم لم يكونوا يركبون الدواب قبله ، ولا يمكن أن يكون الترجل دليل احتقار ، فقد كان كثير من العرب يحاربون فى فرق المشاة ، وكان الترجل عندهم دليل الشجاعة والبأس ، وكانوا اذا استحر القتال يتركون خيولهم أو يعقرونها أحيانا ويحاربون مترجلين .

وإذا كان الموالى قد شكوا من بعض المظالم فى العصر الاموى ، فإن العرب لم يكونوا أقل شكوى منهم ، بل كانت غضبتهم للموالى أكثر من غضبة الموالى لانفسهم يدل على ذلك ثورة الحارث ابن سريج التى سنتحدث عنها ، وانضمام قراء الكوفة وفقهائها الى ثورة ابن الاشعث من أجل الموالى .

وقد فات الذين تحدثوا عن مظالم الموالى فى العصر الاموى أن يشيروا الى الامثلة الطيبة والنصوص العديدة التى تدل على حسن معاملتهم ، فقد كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عامله على الخراج : « ليس من ثغور المسلمين ثغر أهم الى ولا أعظم عندى من ثغر خراسان ، فاستوعب الخراج ، وأحرزه فى غير ظلم فان يك كفافا لاعطيائهم فسيبيل ذلك ، والا فاكتب الى حتى أحمل اليك الاموال فتوفر لهم أعطيائهم » . ومنع ولاته أن يأخذوا ما يزيد عن الخراج مثل هدايا النيروز والمهرجان .

وعندما عزل ابن عامر عامله على الاهواز ، لم يجد معه مالا وفيرا فسأله عن السبب فقال : « أرسلتنى الى بلد أهله رجلا ،

رجل مسلم له مالى ، وعليه ما على ، ورجل له ذمة الله ورسوله ،
فوالله ما دريت أين أضع يدي » .

وكانت شكوى الموالى تنصب على المعاملة المالية ، ومطالبتهم
أن يتساووا بالعرب فى الاعباء الضريبية من خراج وجزية ، بعد
أن ساوى الاسلام بينهم ، وكان الاقبال على الاسلام عظيما ،
وتترك كثير من الموالى أرضهم الزراعية وفضلوا الحياة فى المدن
الكبيرة كالكوكة والبصرة ، ورغبوا فى المشاركة مع العرب فى
الجندية ، والحصول مثلهم على العطاء ، فأدى هذا الى تناقص دخل
الدولة ، وانكسر الخراج ، وأهملت الارض الزراعية ، وأصبحت
الدولة مهددة بأزمة اقتصادية ، وبخاصة أن ايران تكلفها الكثير
من الاعباء بما فيها من ثورات واضطرابات ، وما تدفعه من
عطاء للجند .

وقد اختلفت أساليب الساسة الامويين فى معالجة هذه المشكلة،
فنظر بعضهم الى مصلحة الدولة وحدها دون أدنى اعتبار لمطالب
الموالى ، مثل الحجاج الذى أمر بعودة الموالى الى قراهم ، ويقال انه
وسمهم على أيديهم حتى لا يستطيع أحد منهم مفارقة موطنه ،
وأمر باسقاط أسمائهم من ديوان الجند ، ونظر بعضهم الى
المبادئ والمثل الاسلامية خالصة مثل عمر بن عبد العزيز فقال :
« لا خراج على من أسلم من أهل الارض » ، ولكنه وازن بين
مصلحة الدولة ومصلحة الموالى ، فاعتبر سنة مائة سنة فاصلة
وأسمائها سنة المدة ، ومنع بيع الارض الزراعية الخراجية بعد
هذه السنة ، ومن اشترى شيئا بعدها فان بيعه مردود ، لان هذه
الارض اعتبرت بعد الفتح ملكا للدولة الاسلامية ، وقد نظرت
الى مصلحة الزارعين فأبقتها فى أيديهم مقابل الخراج ، واذا
بيعت للمسلمين تتحول الى أرض عشرية وتخسر الدولة خراجها .
وعمل الخليفة الراشد على تقليل نفقات الدولة بايقاف الحروب

الكثيرة التى لم تحقق نتائجها المرجوة ، ورد القطائع والصوافى التى استولى عليها بعض أبناء البيت الحاكم .

ولم تستمر هذه السياسة الراشدة الى النهاية ، بل عاد الولاة الى الزام الموالى الذين دخلوا فى الاسلام حديثا وبخاصة فى منطقة ما وراء النهر ، بدفع الجزية والخراج ، فأدى ذلك الى الثورة والتدمير بين الموالى وأيدهم فريق كبير من العرب .

وبذلك نستطيع أن نقول ان تيار المساواة بين العرب والموالى كان يسير فى طريقه الحتمى ، وكان بعض الولاة والخلفاء يعترض هذا التيار ناظرا الى مصالح الدولة المالية ، ولكن هذا التيار كان يحظى بتأييد قوى من بعض الخلفاء كسليمان وعمر بن عبد العزيز ومن جماعة الفقهاء والقراء فى الامصار ، وبعض القادة العرب المعارضين للسياسة الاموية كابن الاشعث والمختار والحارث ابن سريج ، كما سنذكر ان شاء الله .

مشاركة الايرانيين فى الادارة المالية :

كان الايرانيون فى العصر الاموى حديثى عهد بالاسلام ، اذ لم يكتمل فتح بلادهم الا فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وانتقال الشعوب من حضارة الى أخرى ومن عقيدة الى أخرى لا يتم بين عشية وضحاها ، لذلك احتاج الامر الى فترة من الوقت حتى تمتزج هذه الشعوب بالحضارة الاسلامية وتعايش قادتها العرب الفاتحين ، وتتخذ دورا طليعيا تحت رايتها ، ولذا كانت السلطة السياسية فى أيدي العرب ، ولكنهم لم يغلقوا الابواب فى وجه العناصر الايرانية ، بل أردفوهم بهم ، وجعلوهم موالى لهم ، وأشركوهم فى بعض النواحي الادارية الهامة ، وبخاصة ما يتعلق بالكتابة والخراج وجمع الاموال ، وجعلوهم مستشارين يسترشدون برأيهم ، ويقومون بالسفارة بينهم وبين أقوامهم .

وقد تصدر الايرانيون هذه المكانة فى مجالى الجباية والسفارة
لخبرتهم ودرايتهم بأحوال بلادهم ، وطبيعة أرضها وسكانها ،
وكانت آراؤهم وأعمالهم تدل على فهم واسع ووعى كبير .

وما يقال عن تعصب الدولة الاموية ضد الموالى بصفة عامة
والفرس منهم بصفة خاصة ليس صحيحا على اطلاقه ، لان معاوية
اصطنع الموالى والنصارى وولاهم مناصب ادارية هامة ، وكان
كاتبه وصاحب أمره سرجون الرومى ، وكان طبيبه ابن اثال
نصرانيا ، وقد اتبعه فى هذه السياسة كثير من خلفائه وعماله ،
وفى الامثلة العديدة التى ذكرها الجهمشيارى ما يغنى فى هذا
المجال .

وفى المناطق الايرانية رأت الادارة الاموية أن الاعتماد على
الدهاقين فى أمور الخراج والجباية أجدى لها ، لانهم أكثر علما
بها ، كما أنهم أيسر فى محاسبتهم ، أما العربى فإنه يمتنع
بقبيلته وعصبيته ، ولا يستطيع الولاة محاسبتهم . وهذا يتضح
من قول عبيد الله بن زياد : « كنت اذا استعملت الرجل من
العرب فكسر الخراج ، فأقدمت عليه ، أوغرت صدر عشيرته ،
أو أغرمته فحملت على عطاء قومه أضرت بهم ، وان تركته
تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر
بالجباية وأوفى بالامانة ، وأهون على مطالبة » .

وكان زياد بن أبيه يستخدم على الخراج زازان فروخ ، وكان
يكتب له مرداس مولاة ، وعندما وجه عمر بن هبيرة عامله مسلم
ابن سعيد الى خراسان سنة 104 هـ أوصاه قائلاً : « تختار من كل
كورة لعملك ، فان أصابوا فالذى أردت ، وان أخطأوا فهم
المخطئون ، وأنت المصيب » .

وكان عمال بنى أمية يسعون الى مشورة الدهاقين فى مجال الخراج ، ويحرصون عليها ، فعندما تولى عبيد الله بن المحارب الفلوجتين (وهما قرىتان كبيرتان قرب عين التمر) من قبل الحجاج بن يوسف ، قال عند ما وصل ولايته ، « أههنا دهقان يعاش برأيه ؟ فقيل له : جميل بن يصهرى ، فاستدعاه وطلب مشورته ، فقال له : أقدمت لرضى ربك أم لرضى من قلدك ؟ قال : ما استشرتك الا لرضى الجميع ، فقال : أحفظ عنى خلا لا : لا يختلف حلمك على رعيتك ، وليكن حلمك على الشريف والوضيع سواء ، ولا تتخذن حاجبا ليرد عليك الوارد من أهل عملك على ثقة من الوصول اليك ، وأطل الجلوس الى أهل عملك يتهيبك عمالك ، ولا تقبل الهدية فان صاحبها لا يرضى الا بثلاثين ضعفا ، فاذا فعلت ذلك فاسلخ جلودهم من قرونهم الى أقدامهم » ، ومعنى قول الدهقان أن عمال السوء يحتجزون نصيبا كبيرا من أموال الجباية لانفسهم ويخدعون الوالى بتقديم بعض الهدايا له ، قال ابن المحارب : « فعلت بنصيحته فجبيته ثمانية عشر ألف ألف درهم » .

وكان الايرانيون من جانبهم يحرصون على احتكار مناصب الخراج والاشراف المالى ، ويتضافرون من أجل ذلك فى تكتل واضح ، فعندما قدم الحجاج الى العراق تخوف الدهاقين أن يستغنى عنهم ويذهب نفوذهم ، فاجتمعوا الى كبيرهم ابن يصهرى فدعاهم الى التآزر ، وألا يتعاون بعضهم مع الوالى على حساب اخوانه ، وقال لهم : « ما أحسن حالكم اذا لم تبتلوا معه بكتاب منكم » ، وضرب لهم مثلا مشهورا عندهم ، وهو « أن فأسا ألقيت بين شجر ، فقال بعض الشجر لبعض : « ما ألقى هذا ههنا لخير ، فقالت لهم شجرة : ان لم يدخل هذا شئ منكن فلا تخفنه » !

وكان والى خراسان أسد بن عبد الله (تولى سنة 106 هـ) يقرب اليه الدهاقين ويصطفى منهم بطانة ، « وكان والى هراة خصيصا به » وكان يمازحه ، ويمتدحه ، ويناصحه ، وكان أسد يقول له : « انك خير دهاقينا » . وقال عامل الخراج فى الرى ، وقد ولاه خالد بن عبد الله أمير العراق : « ان الامير لم يـول الخراج عربيا قط » .

واستمرت سيطرة الفرس على أعمال الخراج طوال العصر الاموى ، برغم اتجاه الدولة الى سياسة التعريب منذ عهد عبد الملك بن مروان ، فتم تعريب ديوان العراق سنة 78 هـ ، والذى قام بتعريبه واحد من الموالى هو صالح بن عبد الرحمن مولى لبنى تميم ، وهو فى الاصل من سبى سجستان ، وكان لصالح هذا مدرسة خرجت عديدا من الاداريين وأصحاب الخبرة فى الامور المالية ، اذ يقول الجهشيارى : « وكان عامة كتاب العراق تلامذة صالح » .

وكان التعريب فى العراق أسبق منه فى خراسان ، وظل أكثر كتاب الخراج فى خراسان مجوسا ، والحسابات بالفارسية حتى كتب يوسف بن عمر والى العراق الى عامله على خراسان نصر ابن سيار سنة 124 هـ يأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشرك فى أعماله وكتابه ، وكان هذا امتدادا لسياسة عمر بن عبد العزيز الذى أمر ألا يتولى أمور المسلمين أحد من أهل الشرك لقوله تعالى « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا » ، ونشط نصر ابن سيار فى تطبيق سياسة التعريب فى خراسان ، وكلف بذلك رجلا من بنى نهشل يسمى « طليق » الكاتب ، وكان ذلك فى أواخر العهد الاموى ، ولاشك أنه يحتاج الى وقت ليس بالقصير حتى يؤتى ثماره .

الاعتماد على الايرانيين فى المشورة والسفارة :

كان الموالى الايرانيون على علم بطبيعة بلادهم وطبائع أهلهم ، ولغاتهم ، ولذلك اعتمد عليهم الولاة والقادة العسكريون ، فاستناروا بمشورتهم فى أمور الحرب واستخدموهم سفراء ومبعوثين للتفاهم والتفاوض مع حكام الثغور وأمراء المناطق المجاورة ، وكان هؤلاء الموالى يؤثرون رابطة الاسلام على أسرة الدم ، فيخلصون النصيح لآخوانهم فى الدين على بنى جلدتهم ، وكان بين يزيد بن المهلب والى خراسان ، وحيان النبطى (وهو من الديلم) خلاف ومنافرة ، لكنه استجاب لقوله : « لا يمنعك ما كان منى اليك عن نصيحة المسلمين » ، فقال « نعم » وتعاون معه فى فتوحات جرجان وطبرستان سنة 97 هـ ، وكان يحارب أهلها من الجيل والديلم الذين ينتسب اليهم .

واستطاع حيان أن يمهّد السبيل لدخول المسلمين طبرستان صلحا بعد أن فشلوا فى دخولها حربا وتكبدوا خسائر كبيرة ، وأبدى براعة وحنكة « دبلوماسيّة » اذ استطاع أن يكسب ثقة الاصبهيد حاكم طبرستان فقال له : « أنا رجل منكم ، وان كان الدين قد فرق بينى وبينكم فأنا لكم ناصح ، فأنت أحب الى من يزيد » ، ثم هون من شأن الانتصارات المبدئية التى أحرزها الديلم على المسلمين ، وحذره من سوء العاقبة عندما تصل الامدادات من الخليفة فقال : « وقد بعث يزيد يستمد ، وأمداده قريبة منه ، وانما أصابوا منه طرفا ، ولست آمن أن يأتيك من لا تقوم له ، فأرح نفسك وصالحه » . وقد أثمرت هذه السفارة ودخل الاصبهيد فى طاعة المسلمين .

وفى فتوحات ما وراء النهر أرسل والى خراسان أشرس ابن عبد الله (تولى سنة 109 هـ) وفدا لدعوة أهل سمرقند ،

وأُسند رئاسته الى رجل من الموالى كان من أهل الفقه والعلم يدعى أبا الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة ، فاشترط قبل ذهابه مع الوفد اسقاط الجزية عمن يسلم ونجح أبو الصيداء فى مهمته وأقبل الترك على الاسلام ، ولكن الوالى لم يف بما وعد فأدى ذلك الى ثورة عارمة سيرد ذكرها .

وفى سنة ١١٢ هـ واجه المسلمون صعوبات عديدة ، وحوصرت قواتهم الموجودة فى بخارى ، وكان الجنيد قائد المسلمين ومعه القوات الرئيسية فى سمرقند لا يدرى ما يفعل هل يبقى حتى يأتیه المدد أم يتقدم لانقاذ المسلمين ، وتعددت الآراء والاقوال ، فطلب من أحد الموالى وهو عبد الله بن أبى عبيد الله أن يسعفه بالرأى السديد ، فاشترط عليه قبل النصح ألا يخالفه الرأى فى ارتحال أو نزول أو قتال ، فقال : نعم ، فقال المولى : « تخندق حيثما نزلت ، ولا يفوتك حمل الماء ولو كنت على شاطئ نهر » ، ثم بين له وجه الخطأ فى المشورات السابقة التى أشار بها بعض القادة : « أما ما أشاروا عليك فى مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث ، فالغياث يبطل عنيك ، وأما ما أشاروا عليك من طريق كش ونسف (وهو الطريق غير المعتاد) فأنك ان سرت بالناس فى غير الطريق فتت فى أعضادهم ، وانكسروا من عدوهم ، واجترأ عليك خاقان ، وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له ، فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى ما فعلت فيسلموا لعدوهم ، وان أخذت الطريق الاعظم هابك العدو » .

وقد آتت هذه النصائح أكلها ، فكانت نصرا مؤزرا فى يوم مشهود عرف « بيوم الشعب » ، حتى قيل ان عبد الله هذا جاء بعد وفاته ابنه فى المنام فقال له : « حدث الناس عن رأى فى يوم الشعب » ، وكان الجنيد يمدح هذا الرجل ، اذ قال عن ابنه : « زبدة من الزبد ، صنبور بن صنبور » (والصنبور من لا أخ له) .

وكان الموالى يستخدمون كأدلاء فى الطريق ، وكان عثمان ابن الشخير قائد المسلمين فيما وراء النهر يستخدم دليلا من منطقة الجوزجان ، فأرشدته الى السبيل التى يهاجم منها ملك الترك ، وقال له : « انى لاعلم ببلادى وطرقها ، فهل تتبعنى لعلنا نهلك خاقان ، قال نعم ، فأخذنا طريقا ، وسارا ومن معهما حتى أشرفوا على خاقان فأوقعوا به » .

مشاركة الايرانيين فى الجيوش الاموية :

اتخذ المسلمون من خراسان قاعدة تنطلق منها الجيوش الفاتحة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فى ميدانى ما وراء النهر والسند ، وكان العنصر العربى صاحب النصيب الاوفى فى هذه الفتوحات امتدادا لرسالته التى اضطلع بها منذ عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولكن العرب لم يحرموا العناصر الاخرى التى أقبلت على الاسلام أن تشارك معهم فى هذا المضمار ، بل اتجهت السياسة الاموية فى مناطق الثغور الى امداد جيوشها بدماء جديدة ، كالبربر فى المغرب والفرس فى المشرق .

وتذكر الروايات التاريخية أن جيش قتيبة الذى عبر النهر سنة 80 هـ كان يضم ثلاثمائة وخمسين ألف درع ، ولما كانت الاحصاءات المذكورة تؤكد أن الجند العربى من خراسان لم يكن يتجاوز خمسين ألفا ، فلاشك أن معظم هذا الجيش كان من الموالى وكان أمراء الفرس وعظماؤهم ، فى المناطق القريبة من نهر جيحون يسارعون بالانضمام اليه بقواتهم ، ففى سنة 86 هـ تلقاه عند الطالقان دهاقين بلخ وعظماؤها فساروا معه ، كما ذكر الطبرى .

ويذكر ابن الاثير أن عدة المجاهدين الموالي فيما وراء النهر بلغ عشرين ألفا فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكان يتحدث باسمهم واحد منهم هو أبو الصيداء ويحمل مطالبهم الى الخليفة ، وكانوا فى أغلب الاحيان يحاربون بلا عطاء لانهم كانوا يعدون من الجند الاحتياطى كالمطوعة ، وينتهى دورهم بانتهاء المعركة ، ويكتفى باعطائهم نصيبا من الغنائم ، أما الجند الاساسى الدائم فمعظمه من العرب ، وكان الموالي يشكون من هذا الوضع فأصلح الخليفة عمر بن عبد العزيز من أوضاعهم واستجاب لمطالبهم .

وكان للايرانيين دور واضح فى فتوحات المناطق الشمالية من بلادهم ونعنى بها جرجان وطبرستان التى فتحها يزيد ابن المهلب سنة 97 هـ ، وكان جيشه حينذاك يتكون من مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالي والمطوعة .

ومن أمراء الفرس الذين تعاونوا مع القيادة العربية فى خراسان ، وساندوها عسكريا فيروز قول مرزبان جرجان ، بسبب تخوفه من الترك الذين أكثروا من مهاجمة بلاده ، وحروبه مع قائدهم « صولا » ، وهو الذى رسم ليزيد بن المهلب خطة لمهاجمة هذا الامير التركى والانتصار عليه . ومنهم أيضا صاغان خداه أمير الصفغانيان ، الذى انضم الى جيوش أسد بن عبد الله القسرى فى حرب الترك ، وكانت مهمة جنده حماية الاثقال ، وتعرضوا للضربة الاولى التى وجهها خاقان الترك الى المسلمين ، وقتل كثير منهم ، بينما كان بعض العرب الناقمين على السياسة الاموية يقاتلون مع الترك ضد اخوانهم .

وكان الايرانيون يشكلون فرقة كاملة من الجيش الاساسى فى خراسان قوامها سبعة آلاف جندى ، وتتضح قيمة هذا الرقم اذا

علمنا أن أكبر القبائل العربية كتميم والازد لم تكن ممثلة في هذا الجيش بأكثر من عشرة آلاف ، وكان لبكر عدد مساو للموالى ولاهل العالية تسعة آلاف ، أما عبد القيس فلم يكن لها سوى أربعة آلاف ، وكانت هذه القوات الاساسية تدعم بأعداد أخرى كبيرة من الموالى والعرب المتطوعة ، وقد يؤازرها الجند الشامى عند الضرورة .

وكان على رأس هذه الفرقة الايرانية قائد منهم هو حيان النبطى وهو من الديلم الذين يسكنون حول بحر قزوين ، وسمى نبطيا للكنته الغريبة على العرب ، وقد أصبح بعد اسلامه مولى لبنى شيبان ، وكان مسموع الكلمة بين الفرس والعرب ، وصاحب دور كبير فى الاحداث السياسية ، وكان معتدا بنفسه ، يبدأ بذكر اسمه عندما يكتب ابن الوالى يزيد بن المهلب ، مما أوغر صدره عليه فأغرمه مائتى ألف درهم ، ولكن الخلافة عرفت قدره واستجابت لشكوى ابنه مقاتل بن حيان ، فأمر الخليفة هشام ابن عبد الملك برد هذا المبلغ على ورثة حيان .

وعندما أعلن قتيبة بن مسلم تمرده على الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، وملك بنى أمية سنة 96 هـ تزعم حيان حركة المقاومة ضده ، حتى قيل له « ليس يفسد أمر الناس الا حيان » ، ودعا حيان الى مبايعة رجل من بنى تميم يدين بالولاء للخلافة ، ويكون ندا لقتيبة ، وهو وكيع ، وخطط حيان لهزيمة قتيبة ، وقتله ، ونجح فى خطته .

وعندما توفى حيان سنة 102 هـ على الأرجح ، ورث ابنه مقاتل مكانته ، وكان من السفراء المعتمد عليهم فى التفاوض مع الحارث ابن سريج الثائر على الامويين وعمالهم ، وكان مقاتل يدعو الى وحدة الحراسانيين عربا وعجما ، والالتفاف حول الوالى فقال

لاتباع الحارث بن سريج : « يا اهل خراسان انا كنا بمنزلة بيت واحد وثغر واحد ، ويدنا على عدونا واحدة ، وقد أنكرنا ما صنع صاحبكم ، ووجه اليه أميرنا بالفقهاء والقراء .. » . ولم يرض مقاتل عن موقف الكرمانى زعيم اليمينية ، فى الفتنة التى وقعت بين اليمينية والمضرية ، فقال له : « أفى كتاب الله هدم الدور وانتهاب الاموال ؟ وتعرض من أجل ذلك للسجن ، اذ حبسه الكرمانى فى معسكره حيناً ثم خلاه .

وكان الموالى الايرانيون يشكلون جانباً أساسياً فى « هيئة أركان الحرب » التى تخطط للقتال فى خراسان والتى أسماها المؤرخون « أصحاب رأى الحرب فى خراسان » والتى تضم من العرب المجشر بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن صبح الخرقى ، ويقول ابن الاثير : « كان رجال من الموالى مثل هؤلاء فى الرأى والمشورة والعلم بالحرب ، فمنهم الفضل بن بسام مولى بنى ليث ، وعبد الله بن أبى عبد الله مولى بنى سليم ، والبختري بن مجاهد مولى بنى شيبان » .

دور الايرانيين فى حركات المعارضة :

كانت جميع الافكار الثورية والحركات المناهضة ذات التأثير والفعالية فى العصر الاموى تنبع من العرب أنفسهم ، كثورات الشيعة والخوارج ، وفرق المرجئة والمعتزلة والجهمية ، وحركات التمرد العسكرية ، وكان يتصدى لقيادتها بعض العناصر العربية باستثناء ثورة الخوارج الصفرية فى المغرب الاقصى ، وان كانت قد اعتمدت فى جانبها الفكرى على عناصر مشرقية .

وذلك أن قادة المعارضة من العرب وجدوا فى العناصر الجديدة التى دخلت فى الاسلام صفحة بيضاء من السهل أن يصبوا فيها أفكارهم ، ومادة طيبة يمكن تشكيلها وتوجيهها نحو أهدافهم ،

ولذلك فلا يمكننا أن ننساق وراء الرأى القائل بأن حركات الموالى كانت نقمة على السيادة العربية ، ورغبة فى استعادة أمجادهم القومية ، لانهم كانوا يتحركون بفكر عربى ، وتحت قيادة عربية فى أغلب الاحيان ، وبخاصة فى ايران .

وكانت أقوى اتجاهات المعارضة التى استجاب لها الايرانيون ثورات الشيعة ، ونعتقد أن النظرية الشائعة بين المؤرخين التى تفسر سبب ارتباط الايرانيين بالشييع ، وهى الفكرة التى نادى بها بروان وجوبينيو لا تكفى وحدها لتفسير هذا الارتباط ، وهى تستند الى عنصرين ، عنصر قديم رسخ فى معتقدات الفرس قبل الاسلام وهو اعتقاد الفرس بأن ملوكهم يملكون حقا الهيأ مقدسا ، وهذا الاعتقاد جعلهم يميلون الى فكرة الوراثة وأحقية آل البيت ، والعنصر الثانى جديد يرى أن الدم الفارسى امتزج بالدم العربى فى آل البيت لان الحسين بن على تزوج من شهربانو بنت كسرى يزددجرد .

ونحن نرى أن هذه النظرية لا تكفى وحدها ، لان فكرة الحق الالهى لم تكن مقصورة على ملوك الفرس وحدهم بل ادعاها قيصرة الروم وفراعنة مصر ، فلماذا تمسك بها الفرس دون غيرهم من العناصر التى دخلت فى الاسلام ، ولماذا قبلوا فكرة الوراثة وأحقية آل البيت ، ولم يقبلوا غيرها من الافكار التى تجعلهم على قدم المساواة مع العرب مثل أفكار الخوارج التى تنادى بأن الخلافة حق لجميع المسلمين دون التقييد بعنصر معين .

وفكرة التقاء الدم العربى بالدم الفارسى لا يمكن أن تفسر لنا سبب التفافهم حول المختار الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية أخى الحسين ، وهو لم يصهر اليهم ، ولا يمكن أن تفسر لنا سبب عزوفهم عن بنى أمية وقد كان يزيد بن الوليد من أم فارسية ، وكان يقول : « أنا ابن كسرى وأبى مروان » كما سبق أن ذكرنا .

ولكن ارتباط الفرس بالتشيع يرجع الى التجاور المكانى والتلاحم التاريخى ، فقد كانت الكوفة مركز التشيع منذ عهد على بن أبى طالب ، وتعج بالحركات الثورية مثل ثورة الحسين ابن على وحركة التوابين ، والكوفة تطل على بلادهم وتغذيها بالهجرات ، كما أن كثيرا منهم وفدوا عليها بعد اسلامهم واستقروا بها ، فكان من الطبيعى أن يتفاعلوا معها ، ونما هذا التفاعل مع الاحداث ، فقد خبر الفرس حكم على أثناء خلافته ورأوا رفقه بهم وحسن سيرته بينهم ، كما رأوا فى أبنائه الفدائية والشجاعة والتضحية ، وامتد تيار التشيع الى قلب بلادهم خراسان مع يحيى بن زيد ، وكان دعاة التشيع يحسنون تعبئتهم وتجنيدهم واستثمار جهودهم مثل المختار ، ثم دعاة العباسيين .

وقد التهب التشيع على أعتاب ايران عقب مصرع الحسين فى كربلاء قرب الكوفة سنة 61هـ ، وتحول من شعور وجدانى الى ثورة متأججة ، تغذيها الدماء فى انتفاضة التوابين سنة 65هـ ، وأعقبتها ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى التى كانت أكثر تخطيطا واعدادا ، وتختلف الآراء حول المختار ، ويتهمه كثير من المؤرخين بالكذب وفساد الاعتقاد ، ولكن هذه الآراء فيها كثير من المبالغة التى أشاعها أعداؤه عنه ، والا ما رأينا رجلا عظيما كعبد الله بن عمر يصاهره ، ويشفع له عندما سجنه ابن زياد ، ويأسى لمصرعه ، وما رأينا زوجة عمرة بنت الصحابى الجليل النعمان بن بشير تفى له وتقبل الموت على أن تقول فيه كلمة سوء بعد موته .

وكان المختار أول من استغل الشعور الوجدانى للتشيع وحوله الى حركة منظمة مخططة ، وأمدّها بدم جديد هو العناصر الايرانية ، وكان العديد منهم يعيش فى الكوفة ويسمون

بالحمراء ، وكان عشرون ألفا منهم يحاربون تحت راية قائده ابن الاشر كما ذكر الدينورى ، وكان الناس لا يكادون يسمعون فى هذا الجيش كلاما عربيا ، وكان المختار وقائده يفخرون بهؤلاء الموالى الايرانيين ، ووصفهم قائده ابن الاشر بأنهم أبناء الاساورة والمرازبة وأنهم أشد الناس بصيرة فى قتال أهل الشام .

وقرب المختار هؤلاء الموالى ، وفرض لهم ولاولادهم العطاء ، وأدناهم من مجلسه ، واتخذ منهم صاحب شرطته « كيسان » ، وقد زاد المختار فى تقديمهم والاعتماد عليهم لانه رآهم أكثر طاعة له واخلاصا ، وقال فى حديثه لعرب الكوفة : « أكرمتكم فشمختم بأنافكم ، ووليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع الى ما أريد » .

واستاء العرب لتقديمه الموالى ، وأشاعوا عنه أنه كذاب ، وأنه طالب دنيا ، والتقوا على محاربتة ، فجمع أبناء العجم وقال لهم : « ألا ترون ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : بلى ، قال : فانهم لم يفعلوا ذلك الا لتقدمى اياكم ، فكونوا أحرارا كراما » . وتضاعف جنده من الموالى لحسن معاملته لهم حتى صاروا أربعين ألفا ، ولا يعنى ذلك أن جيشه قد خلا من العنصر العربى ، فقد بقى معه حتى النهاية عشرون ألفا من العرب .

وكانت أهداف ثورة المختار تتلخص فى الانتقام من قتلة الحسين ، ولذلك رفع شعار « بالثارات الحسين » ، واستطاع أن يحققه بالكامل ، والدعوة الى محمد بن الحنفية ، والمساواة بين العناصر الاسلامية على اختلافها ، وقد اصطدم بثورة أخرى هى ثورة الزبيريين ، وانفض من حوله العرب الا الاقلين فلقى الهزيمة ، وأبى الا القتال حتى لقى مصرعه على يدى مصعب ابن الزبير سنة 67 هـ ، بعد أن أيقظ همم الموالى الايرانيين وأحيا

فى نفوسهم آمالا كبارا ووضعمهم على طريق المساواة الكاملة مع العرب .

وكان الموالى الايرانيون أحد العناصر المؤثرة فى ثورة عند الرحمن بن الاشعث التى بدأت سنة 81 هـ ، ولم يظهر دور الموالى فى المرحلة الاولى من هذه الثورة التى انطلقت من داخل العناصر العربية المحاربة فى اقليم سجستان فى أقصى شرقى ايران بسبب قسوة الحجاج عليهم ، اذ أمر بتجميرهم ، وحرهم فترة طويلة من رؤية أهلهم وذويهم ، ورغب فى قطع صلتهم بمواطنهم فى العراق وأمر ببقائهم الى الابد فى هذه البلاد الجديدة ، كما اتهم قائدهم ابن الاشعث بالتخاذل ومصانعة العدو ولم يدر فى خلد الحجاج أن « جيش الطواويس » الذى وضع فيه آماله وبالف فى اعداده والانفاق عليه حتى سى بذلك لحسنه وكماله ، وسيتحول الى سلاح ضده هو ، وكان واضحا أن ادارة الحجاج فى غفلة عن مشكلات الجند ومطالبهم فى هذا الثغر النائى

وعبر بعض القادة عن معاناة الجند حينما خطب فيهم قائلا : « انكم ان أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجمركم تجمير فرعون الجنود ، فانه بلغنى أنه أول من جمر البعوث ، ولن تعاينوا الاحبة فيما أرى أو يموت أكثركم » ، وبايع الجند ابن الاشعث واعلنوا تمردهم على الحجاج وخلصهم طاعة بنى أمية . وسرعان ما اتسع نطاق هذه الثورة وانضمت اليها عناصر جديدة ، وأزكتها عوامل أخرى ، منها العصبية القبلية ، والميول العلوية ، وانطلقت جيوش ابن الاشعث كالسيل الكاسح فاستولت على خراسان والبصرة .

وفى هذه المرحلة بدأ دور الموالى فى هذه الثورة ، واتصموا اليها ، وبعض المؤرخين لم ينتبهوا الى هذا التطور الجديد وظنوها

ثورة عربية خالصة ، اذ يقول الدكتور نبيه عاقل : « اننا لا نجد في الطبرى ولا فى غيره من المصادر ما يشير الى أن الموالى كانوا سببا فى ثورة ابن الاشعث أو أنهم هم الذين أحدثوا الفتنة » .

ونرى أن دور الموالى كان بارزا فى المرحلة التالية من هذه الثورة ، عندما امتدت الى المناطق العراقية ، ويتمثل هذا الدور فى جانبين أولهما أن الموالى كانوا أحد العناصر المشاركة فى الثورة، وكانوا يقاتلون مع ابن الاشعث، اذ يقول ابن عبد ربه : ان أكثر من قاتل الحجاج وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة ، وكان الموالى هم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم والجانب الثانى أن هؤلاء الموالى حركوا مشاعر العناصر العربية وبخاصة طائفة الفقهاء والقراء ، الذين ساءهم ما أصدره الحجاج من قرارات رأوا أنها تخالف المبادئ الاسلامية مثل الزام الموالى بالعودة الى قراهم والعمل فى الارض ودفع الخراج ، وكانت صرخات الموالى المتضررين « وامحمداه » تؤثر فى هؤلاء القراء أشد التأثير حتى أنهم كانوا ييكون لما يرون ، فلما قدم ابن الاشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك كما ذكر الطبرى وابن الاثير .

ولذا نرى أن حركة ابن الاشعث تمثلت فيها كل العناصر الايرانية العراقية ، عربا وعجما ، وعبرت من خلالها كثير من الاحزاب المعارضة عن شخصها ، مثل الفقهاء والقراء ، والعلويين وأصحاب العصبية اليمينية الناقمين على الحجاج والقيسية والخلافة القرشية . ولكن هذه الثورة لم تثبت أمام الوقفة الحازمة للخلافة وجندها الشامى ، ومنيت بالهزيمة فى موقعة دير الجماجم سنة 83 هـ ، ولجأ ابن الاشعث الى رتبيل أحد ملوك الهند فأسلمه الى الحجاج سنة 85 هـ .

وكانت الثورات التي تحركت بدوافع شخصية ، ولم تعبر عن مظالم حقيقية للموالى أو العناصر العربية فى ايران ، أقل خطرا وأضعف تأثيرا ووجدت صدودا واعراضا من هذه العناصر ، لانهم لم يجدوا فيها تمثيلا حقيقيا لآمالهم ، ومنها ثورة قتيبة ابن مسلم ويزيد بن المهلب .

وكان الدافع وراء تمرد قتيبة خوفه من انتقام الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك لسابق موقفه منه عندما زين للوليد خلعه من ولاية العهد ، فأعلن خلعه سنة 96 هـ ودعا الجند الى مبايعته ، وأراد أن يستعيز عن افتقاره لعصبية قوية تنصره الى احياء النعرة العراقية الايرانية فى نفوس رجاله ، وتذكيرهم بعداوتهم لاهل الشام ، فقال لهم ، « يا أهل خراسان انسبونى تجدونى عراقى الام والاب ، عراقى المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ... حتى متى يتبطح أهل الشام بأفئدتكم وظلال دياركم » . ولكن إتباعه لم يجدوا ما يدفعهم لمناصرته ، فانفض العرب من حوله حتى أثاروا حفيظته فوصفهم بأنهم « كناسة المصريين » ، وانصرف الموالى عن الخوض فى الفتنة وقال زعيمهم حيان النبطى « هؤلاء يقاتلون على غير دين » ، ووقفوا ضده حتى لقى حتفه على أيدي معارضيه من الفريقين .

وبالمثل لم ينجح يزيد بن المهلب فى تجميع الناس من حوله ، لان خلافة مع يزيد بن عبد الملك لم يكن يخص أحدا سواه ، ولم يستطع أن يتجاوز بثورته الاسباب الشخصية الى أسباب عامة تجذب الناس اليه ، ونبذته المضرة ، وناصره فريق من قومه اليمنية ، وحلفائهم ربيعة ، لكن هذا لم يجده أمام قوة الخلافة وأنصارها فلحقت به الهزيمة سنة 102 هـ .

وظهر تلاحم العرب والموالى فى حركة أخرى تزعمها الفقهاء
المجاهدون فى جيوش ما وراء النهر ، وتفرعت عنها ثورة كبيرة
قادها الحارث بن سريج ، وامتدت حتى أواخر العهد الاموى .

وكانت جماعة الفقهاء فى صفوف الجند تتزعم حركة الإصلاح
وتطالب بتطبيق المبادئ الاسلامية الكاملة ، وتحسين أوضاع
الموالى ، وإزالة العوائق التى تحول دون إقبال العناصر التركية
على الاسلام ، وعندما نتلمس أخبار هذه الجماعة الإصلاحية فى
ثنايا المصادر نجد من أعضائها زعماء بغض الفرق الدينية مثل
الجهم بن صفوان ، زعيم الجهمية أو القدرية ، وهو مولى لقبيلة
راسب ، وأبى رؤبه زعيم المرجئة ، وأبى الصيذاء صالح
ابن طريف مولى بنى ضبه الذى عرض مطالب الموالى على الخليفة
عمر بن عبد العزيز ، فأبدى إعجابه به وقال : أحرى بمثلك أن
يوفد » ، وكان معه رفيق كفاحه ثابت قطنة ، ومعهم أيضا
الحارث بن سريج ، وكان من أشجع المجاهدين فيما وراء النهر ،
ونسنتج من المصادر أنه عربى مضرى من قبيلة تميم ، ومن هذه
الجماعة الإصلاحية عدد آخر من الفقهاء الذين ينتمون الى القبائل
العربية المختلفة يضيق هذا البحث عن ذكرهم . ولكننا نكتفى
بالإشارة الى أنهم لا يمثلون قبيلة واحدة ، ولا يعبرون عن
عصبية ، وإنما تجلت فى حركتهم الروح الاسلامية ، وتلاشت
الحدود القبلية والعنصرية .

وبدأت هذه الحركة بعرض هادئ لمطالب الموالى عبر عنه
أبو الصيذاء أمام الخليفة عمر الثانى فقال : « يا أمير المؤمنين
عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ، ولا رزق ، ومثلهم من
أهل الذمة قد أسلموا يؤخذون بالخراج ، وأميرنا عصبى جاف
يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفيا ، وأنا اليوم عصبى ، والله
لرجل من قومى أحب الي من مائه من غيرهم ، وهو بعد سيف من

سيوف المجاج ، قد عمل بالظلم والجور » . وقد اثنى عليه الخليفة واستجاب لهذه المطالب .

ولكن الوضع تغير بعد وفاة عمر ، وعانى الخراسانيون من ولاية أسد بن عبد الله القسرى ، وتوقعوا خيرا من الوالى التالى أشرس بن عبد الله الذى تولاهم سنة 109 هـ ، وكانوا يسمونه الكامل لفضله ، وبخاصة أنه سعى لنشر الاسلام فى بلاد الترك بالطرق السلمية ، وأرسل وفدا لدعوة أهل سمرقند على رأسهم أبو الصيداء ، فاشترط اعفاء من يسلم من الجزية فوافقه الوالى ، فأشهد أبو الصيداء أصحابه وقال لهم : ان لم يف العمال أعنتمونى عليهم ٦ قالوا نعم .

ونجح أبو الصيداء فى مهمته واستجاب أهل سمرقند للاسلام ولكن الوالى لم يف بما وعد ، وخشى أن ينكسر الخراج ، وعندئذ ثار أهل سمرقند ، وانضم اليهم جماعة الفقهاء يتزعمهم أبو الصيداء ، وكان رد الوالى عنيفا اذ قبض على هؤلاء الزعماء ، وانتقم من عظماء العجم والدهاقين ، فأقيموا وتخرقت ثيابهم .

وحمل لواء الثورة الحارث بن سريج سنة 116 هـ وامتد بها من تركستان وما وراء النهر الى المناطق الايرانية .

ونستطيع أن نقسم حركة الحارث بن سريج الى ثلاث مراحل ، فى المرحلة الاولى كان هجومه غضبية لما حل بأصحابه وبأهل سمرقند ، وتمكن من دخول الفارياب وبلخ ، وازالة عاملها نصر بن سيار ، ووجد تأييدا كبيرا من الايرانيين ، فكان أهل مرو يكاتبونه ، ولا يقصد مدينة الا أخلاها أصحابها وتركوها له ، وانضم اليه كثير من العرب والموالى ودهاقين الجوزجان والفارياب ومرو الروذ وملك الطالقان ، ولكن تقدمه السريع تراجع أمام مقاومة الادارة الاموية فارتد الى تركستان .

وفي المرحلة الثانية قضى الحارث أكثر من اثنتي عشرة سنة في بلاد الترك ، وعاش بينهم ، وليس لدينا معلومات عن نشاطه خلال هذه الفترة الا ظهوره بين الحين والآخر مساندا لخاقان ملك الترك في هجومه على المناطق الايرانية .

وفي المرحلة الثالثة قدم الحارث الى خراسان بعد أن أعطاه الخليفة يزيد بن الوليد الامان سنة 126 هـ ، ولكنه ما لبث أن أعلن ثورته بصورة أشد واعنف سنة 128 هـ بعد أن تولى مروان ابن محمد الخلافة ، وقال : «انما أمنني يزيد ولم يؤمنني مروان» واعتمد في هذه المرحلة على جند من العرب واتضحت فيها مطالبه بصورة كاملة ، وفي مقدمتها الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون الامر شورى ، واستخدام عمال من أهل الصلاح والخير ، ورفض ما عرض عليه من مناصب وأموال ، وكان في حياته زاهدا متقشفا .

وبرغم ما ذكرته المصادر من أنه لبس السواد ودعا الى الرضا فليس لدينا ما يثبت أنه كان شيعيا ، ولو صح منه ذلك لاتجه الى التعاون مع دعاة العباسيين الذين نشطوا في هذه الاثناء وما لبثوا أن ظهروا تحت لواء أبى مسلم ، أو تعاون مع جعفر بن أبى طالب الذى دعا لنفسه بالكوفة سنة 127 هـ .

ولكن ثورة الحارث انحرفت عن مسارها من حيث لا يدري ، اذ التف حوله العرب المضرية واعتبروا ثورتهم رمزا لعصبيتهم ، وناوآه اليمينية بقيادة الكرمانى وتحولت من ثورة اصلاحية ذات شعار اسلامى الى فتنة بين عصبيتين ، كما أنه أغفل في المرحلة الثالثة من ثورته عنصر الموالى الذى بدأ حركته من أجلهم ، ولذا اخفقت ثورته وانتهت بانتصار الكرمانى عليه ومصرعه سنة 128 هـ .

ولكن ثورته أيضا مهدت من حيث لا تقصد لثورة أخرى ،
أفادت من الصراع بين العناصر العربية ، وعلت فوقها جميعا
لتبقى وحدها كل الثمار ، وهى ثورة أبى مسلم الخراسانى ،
التي شكل الايرانيون فيها عنصرا هاما ، وحققوا تحت رايتها
كثيرا من الآمال التي تطلعوها اليها ، فاتيح لهم فى العصر العباسى
أن يتربعوا على مناصب الادارة والوزارة ، ويقىموا دويلات
مستقلة، بل ويعلو سلطانهم على سلطان العرب فى عهد البويهيين .



أهم مصادر البحث

- 1 - ابن الاثير : الكامل .
- 2 - الاصطخرى : المسالك والممالك .
- 3 - البلاذرى : فتوح البلدان .
- 4 - البلاذرى : أنساب الاشراف .
- 5 - الجاحظ : البيان والتبيين .
- 6 - الجهشيارى : الوزراء والكتاب .
- 7 - حمادة (محمد ماهر) : الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الاموى .
- 8 - الخطيب (عبد الله مهدي) : الحكم الاموى فى خراسان .
- 9 - خطاب (محمود شيت) : قادة فتح بلاد فارس .
- 10 - دكسن (عبد الامير حسين) : الخلافة الاموية من 65 هـ الى 86 هـ .
- 11 - الدينورى : الاخبار الطوال .
- 12 - سرور (محمد جمال الدين) : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية .
- 13 - سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ الدولة العربية .
- 14 - السيوطى : تاريخ الخلفاء .
- 15 - شلبى (أحمد) : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية - الجزء الثانى .
- 16 - الطبرى : تاريخ الامم والملوك .
- 17 - عاقل (نبيه) : تاريخ خلافة بنى أمية .
- 18 - ابن عبد ربه : العقد الفريد .
- 19 - فاروق عمر : التاريخ الاسلامى وفكر القرن العشرين .
- 20 - فلمهاوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية .
- 21 - فلوتن (فان) : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات .
- 22 - القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد .
- 23 - محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الاموى .
- 24 - المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- 25 - المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم .
- 26 - ياقوت الحموى : معجم البلدان .
- 27 - اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى .